تجار الرقيق الذين يبيعون أبناء الأنبياء!!!

كنتُ في مجلسٍ مع الشيخ المهندس محمّد المقرمي رحمه الله رحمة واسعة، وقد حضرت صلاة العصر.

قام الجميع للصلاة إلا أنا والشيخ؛ فقد كنا يومها في سفر، وقد صلّينا الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، فجلسنا ننتظر الناس.

التفت إليّ الشيخ، وفي عينيه سكينة العارف وتجربة السنين، وقال بصوت خافت قد غشيه شيء من الذكريات:

في فترةٍ من حياتي انقطعتُ عن العمل، وكنتُ يومها في قمّة عطائي ونجاحي، لكن ظروفًا لا أحب ذكرها دفعتني للعزلة...

انقطعت عن كل شيء..

إلا كتاب الله جل وعلا.

حتى الذين عرفوني افتقدوني، وبعث إليّ اتحاد الأدباء والكتّاب رسالة يقولون فيها:

إلى صديقنا الذي ذهب ولم يعد...

لقد كاد يشطب اسمك من سجل الحافظة الحضارية...

وذكر رسالة أدبية طويلة وصلته منهم، ثم قال:

فأجبتهم:إذا كنتُ في مجتمع قاعدتهُ هم إخوةُ يوسف، بمنطقهم الذي يقول:

﴿اقتُلوا يوسُفَ أَوِ اطرَحوهُ أَرضًا يَخلُ لَكُم وَجهُ أَبيكُم وَتَكونوا مِن بَعدِهِ قَومًا صالِحينَ﴾

يبتغون الصلاح بقتل أخيهم...!

وقمّته امرأة العزيز، بمنطقها الذي يقول:(وَلَئِن لَم يَفعَل ما آمُرُهُ لَيُسجَنَنَّ وَلَيَكونًا مِنَ الصّاغِرينَ﴾

وحلقة الوصل بين القاعدة والقمّة هم تجار الرقيق، الذين يبيعون أبناء الأنبياء بمنطقهم الذي يقول: (يا بُشرى هذا غُلامٌ)

و: ﴿وَشَرَوهُ بِثَمَنٍ بَخسٍ دَراهِمَ مَعدودَةٍ)

فأجمل اختيار بين كل هذه العقول..

هو اختيار يوسف عليه السلام حين قال:﴿قالَ رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدعونَني إِلَيه).

هنا... وقفتُ دون إرادة، وأخذتُ أتمايل طربًا، كأن شيئًا في الروح خُوطب، وقلتُ من دون وعي: الله... الله... الله...

وبقيت واقفًا أتأمل تلك الكلمات، والشيخ ينظر إليّ مبتسمًا ويقول:اجلس أيها الشاعر.

فقلتُ: أي شعرٍ وأي شعورٍ وأي مشاعر!

والله لقد قلتَ شيئًا دونه كل قصائد الدنيا.

وظللتُ على حالي حتى امتلأ المجلس بالحضور، والشيخ لا يزال يناديني بالجلوس.

نظرتُ إلى الحاضرين، ثم توجهتُ لأول جالسٍ في طرف المجلس وقلت له:هل تعرف من هم تجار الرقيق الذين يبيعون أبناء الأنبياء؟

قال: "لا."

ومضيت أسأل الثاني والثالث، وعمّ السؤال المجلس، والجواب نفسه: "لا نعرف."

عندها التفتُّ إلى الشيخ، وقد أشرقت على محيّاه ابتسامة من يعرف، وقلت له: أخبرهم يا شيخ...

أخبرهم: من هم تجار الرقيق الذين يبيعون أبناء الأنبياء؟

بين الشيخ رحمة المولى الكريم تغشاه للحاضرين ما أردت أن يعيده على مسامع القوم..

ثم ابتسم رحمة العلي الأعلى تغشاه..

ابتسم تلك الابتسامة التي تجمعُ بين حزن العارف، وسخرية الحكيم من دنيا تتكرر حكاياتها وإن تغيّر الزمان، ثم نظر إلى الحاضرين نظرةً هادئة كأنّه يختار

ألفاظه من موضعٍ أبعد من الذاكرة، أقرب إلى البصيرة.

قال: تجار الرقيق...ليسوا الذين يبيعون الأجساد، فهؤلاء وإن كانوا قساةً فهم ظاهرون.

ولكن تجار الرقيق الحقيقيون هم الذين يبيعون منهج الأنبياء في الناس...أولئك الذين يزايدون في الحق يزيدون وينقصون، يمالئون ويبتدعون، يحاربون الحق على حساب أهوائهم المنحرفة وعقائدهم الفاسدة، الذين يلوون أعناق الأدلة لخدمة أغراضهم ومصالحهم الدنيا،الذين يبيعون القيم، والمبادئ، والرسالات، ويشترون بها دنيا قليلة.

ساد صمتٌ عميق.

كان كل من في المجلس ينصت، كأن الشيخ يحدّث كل واحدٍ باسمه.

تابع الشيخ يقول: تاجرُ الرقيق...

هو من يبيع كلمة الحق بثمنٍ بخس،ويقبض رضا النافذين وأصحاب السطوة والسلطة مقابل أن يخنق صوتًا كان يجب أن يبقى.

هو من يساومك على نورك، ليمنحك ظلًّا،ويطالبك أن تتنازل عما تعرف أنه الحقّ، ليمنحك ما تعلم أنه زائل.

تاجر الرقيق...هو الذي يرى يوسف ولا يرى نبوته،يراه غلامًا لا رسالة، جسدًا لا امتحانًا من الله،فيرضى أن يقبض عليه دراهم...! وما علم أن الله يرفع بالصبر أقوامًا،ويُسقط بالدراهم آخرين.

ثم سكت قليلًا، ومسح على لحيته، وقال بصوتٍ خافت لكنه نافذ:وأسوأ تجارةٍ

في الوجود... أن يبيع رجلٌ ابن نبي.

هنا ارتفعت رؤوس الجالسين دفعة واحدة، كأن المعنى اخترقهم.

قال أحد الحاضرين:ومن يبيع أبناء الأنبياء اليوم يا شيخ؟

ابتسم الشيخ ابتسامة موجعة، وقال:كل من يبيع صاحب رسالة، كل من يخذل صاحب مبدأ، كل من يساوم صاحب دعوة...هؤلاء هم تجار الرقيق.

يوسف يتكرر، والدراهم تتكرر، وبائعو الرسالة يتكررون...أما المخلصون فلا يتكررون إلا كندرة المطر.

ثم التفتَ إليّ، وقال بلهجة أبوية:لهذا اخترتُ السجن بإرادتي...سجن العزلة على أن أُسجن في منطق الناس،فسجنُ يوسفِ اختيار...وأما سجونُ الدنيا... فليست اختيارًا.

بهت المجلس، وعمّ الصمت،وتيقنتُ يومها لماذا كان الشيخ يقول:﴿رَبِّ السِّجنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدعونَني إِلَيه﴾.

هذه القصة المؤثرة تعود للشاعر والإعلامي اليمني أديب القاسم.

وقد نشرها عبر حساباته الرسمية على مواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك وتليجرام)

كجزء من ذكرياته ومواقفه مع الشيخ المهندس محمد المقرمي

(وهو شخصية يمنية معروفة برؤيتها الفكرية العميقة ورحل عن عالمنا قبل

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
[الزمر: 18]
موقع الراشدون
تحت إشراف الدكتور حسين عامر

سنوات).